روزفلت وهتلر

مقابلة

في خلال يوم واحد من أيام شهر مارس سنة ١٩٣٣ حدث حادثان كان لهما أعظم شأن في تاريخنا الحديث. فبعيد ظهر الرابع من شهر مارس في تلك السنة نصّب فرنكلن دلانو روزفلت رئيساً للولايات المتحدة، وقبيل منتصف ليل الخامس من ذلك الشهر أقرّ الريختاج «قانون التمكين» Enabling Act الذي وضع في يدي المستشار ادولف هتلر زمام السلطان المطلق في المانيا. وانقضت ثماني سنوات، فاذا الرجلان يقابل أحدهما الآخر، وكل منهما رمز لطريقة من الحياة والاجتماع. ولكن الطريقتين متناقضتان والعالم لا يتسع لكليهما معاً

لم يكن في وسع أحد أن يتبين في سنة ١٩٣٣ هذه الصلة بين الرجلين. ولكن يندر الآن من لا يرى انهُ لا بد لاحدهما من أن يقهر الآخر. وقد قال هتلر في احدى خطبه ان نتيجة الصراع بين هذين النظامين ستقرر مصير العالم مدى الف سنة من الزمان، والغالب انهُ لم يغال فيما قال

واذا كنا قد اخترنا روزفلت ممثلاً لطريقة الحياة التي تؤثرها الشعوب الدمقراطية، فليس سبب ذلك أنه أراد ان يكون هذا الممثل، ولا لأنهُ يفوق غيره من زعماء هذه الشعوب. فالرجل الذي أنقذ بريطانيا في ساعة الخطر والبلوى، منصف في ذهنه وخلقه بصفات، تؤهلهُ للصدارة، ولا يجوز وضعهُ في مكان دونها. ولكن الموارد التي من وراء روزفلت هي التي تضعهُ في المقام الأول. فليس في متناول تشرتشل خمسة وعشرون مليوناً من الرجال في سن الخدمة العسكرية. ولا دخل قومي سنوي يبلغ مائة الف مليون من الريالات. ولا صناعة تقرب من صناعة الولايات المتحدة في اتساع نطاقها ومدى انتاجها. ولا ثلاثمائة وتسعة وخمسون مليوناً من الافدنة المزروعة. فالاحتياطي الاكبر والأخير الذي تعتمد عليه الشعوب الحرة، انما هو موارد الولايات المتحدة، وفرنكلن روزفلت هو رئيس جمهوريتها وقائدها العام

ثم هناك صفة اخرى تجعل روزفلت القطب البارز في صفوف الشعوب الدمقراطية. إنهُ يشارك هتلر في الصفة التي جعلت هتلر قوياً عزيزاً. ذلك بأن اسمهُ مرادف في اذهان

الجماهير للاسلوب الحيّ الفعّال ، دون الاسلوب الجامد المستقرّ ، في نظم الحكم . ان تشرتشل محافظ . وهذا لا يعني انه أضعف إيماناً بالحرية الانسانية وأوهى قوة في النضال والكفاح لصونها . ولكنه يعني ان همه الاكبر كان دائماً الاحتفاظ بخير ما ورثناه من الماضي . يقابل هذا ان الثورة على مساوىء الماضي ، بصرف النظر عما فيه من خير ، هي التي رفعت هتلر في المانيا وروزفلت في الولايات المتحدة الى مقام السلطان . والجماهير التي ثارت لا تقرن انتصار روزفلت في هذا النضال العالمي بالعودة الى الحالة السابقة (والواقع الذي لا بدّ من الاعتراف به هو ان فقر تشرتشل لا يعني هذه العودة لأن الحالة القديمة قد انهارت وليس بعثها بالمستطاع) . ولكن روزفلت مشهورٌ بأنهُ لا يرغب في بعثٍ من هذا القبيل ، والعالم قاطبة يدرك هذا . ولذلك لا يستطيع احد ان يدمغ حركة يتولى قيادتها ، بأنها حركة رجعية

واذا كان في شؤون الناس شيءٌ يوثق به ، فهو ان روزفلت لم يتصور ضلعا انتخب سنة ١٩٣٢ ونصّب سنة ١٩٣٣ ، لحالة التي يتولى فيها هذه الزعامة العالمية . نعم كان قد أعدّ خططاً لأمته وأسعة النطاق بعيدة المرامي . ولكن السلام لا بد منهُ لتحقيق خطط من هذا القبيل ، لان مدارها وغرضها الملاءمة بين النظام الاقتصادي القائم وحاجة الشعب . وهذا عمل لا تنجزه المدافع ولا الدبابات ولا طائرات القتال

وهذا القول لا يعني ان روزفلت لم يدرك خطر نشوب حرب — قد تكون عالمية — قبل ثماني سنوات . فهو رجل متقد الذهن واسع الاطلاع ، وكل من كان فوق المتوسط من رجال الفكر والعمل ، كان يدرك احتمال نشوب هذه الحرب . ولكن الرئيس كالكثرة الاميركية ، كان يأبى ان يأخذ بالحرب أداة للسياسة القومية . فقد كان يعي احتمالها ، ولكنهُ كان يعدها شراً يجب اجتنابه ، لا فرصة يجب اغتنامها والتأهب لذلك

ومن المرجح ان هتلر نفسه لم ينو ان يواجه روزفلت في الحالة التي يواجهه فيها الآن . والغالب ان هتلر كان مقتنعاً بأنهُ يستطيع هزم بريطانيا ، بالاسلحة السيكولوجية ، ثم يواجه روزفلت ، أو من يكون رئيساً للولايات المتحدة ، وقد اجتمعت قوة اوربا بين يديه . لأن القضاء على الحكومة الشعبية الحرة في الولايات المتحدة أمر لا مفر منهُ لتحقيق كل خطة غرضها السيادة العالمية والمرجح ان ذلك كان قائماً في ذهن هتلر منذ الساعة الاولى

ومع ذلك كان موقف احد الرجلين في مارس سنة ١٩٣٣ مماثلاً لموقف الآخر . كلاهما ارتقى على موجة من البرم بالحالة القائمة ، وكلاهما تسلم زمام دولة كانت من الوجهة الاقتصادية على شفا الانهيار ومن الوجهة الاجتماعية في حالة اضطراب . وكلاهما واجه مشكلة كبيرة معقدة وهي تدبير عمل لملايين من المتعطلين عن العمل وبث روح الحياة والاقدام في شعب تطرقت

اليه معاني التراخي والقنوط . وفي الحالين لم يكن الشعب الاميركي ولا الشعب الالماني مسيَّراً بالحماسة للزعيم الجديد قدر ما هو مسيَّر بالبرم بالحالة القائمة . ولذلك منح كل منهما سلطة مطلقة لتدبير الحال

***

ان حق الشيخ او الملك في الفوز بولاء القبيلة أو الشعب لهُ ، كان قائماً في جميع عصور التاريخ على قدرته على حماية رعيته وتجنيبها اخطاراً لا تستطيع أن تتجنبها وحدها . فالطبيعة البشرية لم تتغير على كرّ القرون . ولكن ما تغير إنما هو العدوّ الذي يراد اجتناب خطره . إن خوف الناس قديماً من لصوص مسلحين بأسلحة تُرى وتخشى ، قد تحوّل في العصر الحديث ولا سيما بعد الثورة الصناعية ، خوفاً من نظم اقتصادية تخشى اساليبها وان كانت لا تُرى . فالموت جوعاً لا يزال الموت جوعاً سواء أكان بالسلب والنهب كان الجوع، ام بالانهيار الاقتصادي والتعطل عن العمل . والحكومة التي تعجز عن منع الجوع الناشيء عن الاضطراب والانهيار والازمات الاقتصادية ، هي حكومة لا تستطيع ان تفوز بثقة الشعب وولائه

نعم ان الحكومة ليست مُلزمة ان تدبر لكل رجل رزقهُ ، ولكنها مدينة لهُ بحماية حياته . وهي تعترف ضمناً بهذا الدين عندما تطلب منهُ وتتوقع ولاءه لها وتأييدهُ اياها . ولم تنكر حكومة ما هذا الاعتراف . وتاريخ البشر يدلُّ على ان الناس ينطلقون من قيود الولاء لحكومة ما عندما تعجز هذه الحكومة عن صون حياة الناس . وفي سنة ١٩٣٣ كان في الولايات المتحدة والمانيا ملايين من الناس مهدَّدين بالعوز والفاقة لان الحكومة كانت لا تقدر او لا تجرؤ على حمايتهم من قوى اقتصادية تطغى عليهم . فبدت بوادر التردُّد على الحكومة والنظام القائم في البلدين . ولم يكن هذا شيئاً جديداً في تاريخ الاجتماع لا سابقة لهُ . بل كان شيئاً طبيعيًّا ولهُ سوابق كثيرة

ومع ذلك كان ينطوي على خطر ، لان الشعب اذا ثار وكان بغير قيادة ترشده أو توجههُ سواء السبيل ، او كانت قيادتهُ لا تقيم وزناً للحقائق الانسانية العليا ، ولا تميز بين الفضيلة والرذيلة ، بين الوطنية والخيانة ، بين الاحسان والجشع ، فعندئذٍ قد تطغى الحركة الشعبية النابعة من قرارة الحياة نفسها ، فيتعذر صدها أو توجيهها . ولا توجه سواء السبيل ، الاَّ اذا كان المرشد الجديد ، سياسيًّا حكيماً

ولعلَّ أعظم قدرٍ أسفرت عنهُ عبقرية الشعب الاميركي في الحكم الذاتي تحوُّل الشعب التفت في الازمة التي أناخت عليه ، في العقد الرابع من هذا القرن، الى رجل من صميم الحياة الاميركية مشبع بروحها ، مؤمن بتقاليدها . أما الشعب الالماني فالتفت الى لاجئ ، قليلاً

ما يعرف عن عظمة المانيا الحقيقية ، وما يعرفهُ عنها مرذولٌ عنده ومحقَّر . ولعلّ الالمان كانوا أقرب الى المنطق من الاميركيين ، لأنهُ ما زال النظام القديم قد انهار ، فالمنطق يقضي بأن يكون الرجل الذي يرشد الى النظام الجديد ، بعيداً أبعد البعد عن النظام القديم . ومع أن النظام القديم في أميركا كان قد اختل وسقطت هيبتهُ ، وأصغى الشعب الاميركي الى صوت القائد الجديد وهو يقول : ان قواعد النظام سليمة ، وتطبيقها تطبيقاً فعالاً مستطاع لذا عمدنا الى أساليب جديدة

وما ان تقلد الرجلان زمام الحكم حتى بدأت طريق احدهما تنفرج عن طريق الآخر . ولعل الفرق الاساسي في فلسفتهما السياسية ، هو ان روزفلت يذهب الى ان الخراب الذي كانت تحيط به انقاضه يردُّه الى الغباوة . بينما هتلر يقول ان مرده الى الجريمة . فروزفلت كان يعتقد ان الثروة في أميركا بُدّدت فضاعت ، وهتلر كان يعتقد ان ثروة في المانيا قد نهبت . فذلك كان « الانعاش » غرض الاول ، و « الاسترداد بالقوة » غرض الثاني . فقال الأول لشعبه « لننتج » وقال الثاني لشعبه « لنأخذ »

ولكنهما اتفقا على أن قداسة الملكية الفردية ليست مطلقة مقدَّسة في ذاتها ، بل هي قائمة على سلامة الأمة . ولذلك لم يحجم أحدهما عن انفاق مبالغ طائلة في سبيل توطيد سلامة الأمة . فلم تجيء سنة ١٩٣٩ حتى كان روزفلت ، قد أنفق أربعين الف مليون ريال ، علاوة على نفقات الحكومة والادارة العادية . أما هتلر فقد انفق مبلغاً ليس في الوسع معرفته على وجه التحقيق ، لأن الحكومة الالمانية النازية لا تقدم حساباً عن نفقاتها ، ولكن يُظن أنهُ يبلغ تسعين الف مليون ريال

أما روزفلت فقد أنفق معظم هذا المال على الطرق والجسور والسدود ومحطات توليد الطاقة الكهربية ونزح البطائح وتحريج الاراضي البور . وأما هتلر فأنفق معظم المال على السلاح . وقد كان الفرق بين وجهي الانفاق ، نتيجة طبيعية للفرق الاساسي بين أغراض الرجلين . فروزفلت غرضه بسط رواق الرخاء الذي أنهدم او تداعى ، فتوصل الى ذلك بانشاء الاسباب التي تلد الثروة . وهتلر غرضه بسط رواق الرخاء بنزع الثروة من الدول الاخرى . ولو ان حكيماً عالماً بالغيب تصوَّر ما يكون مصير العالم بعد ثماني سنوات ، لكان أشار على روزفلت بأن ينفق هذا المال على صنع السلاح !

***

وليس ثمة ريب في ان هتلر ، بعد ما تمادى في طريقته ، فرضها على سائر العالم . فليس في وسع أمة ، في العالم الحديث أن تنفق جانباً كبيراً من نشاطها ومعظم ثروتها ، في سبيل تحقيق

خطط السلام ، بينما تبذل دولة كبيرة اخرى كل ذرة من نشاطها في التأهب للحرب

والرأي الغالب بين جماعات كثيرة من الناس ان ما صنعهُ روزفلت دليل على ضعف أصيل في النظام الدمقراطي . ولكننا لا نرى أين هو هذا الضعف . انهُ في الواقع ضعف كل امة على الاطلاق ، سواء أديمقراطية كانت ام غير ديمقراطية ، اذا كانت القاعدة التي تقيم عليها صرح اجتماعها هي قاعدة السعي الى تحقيق الحياة الوافرة لكل فرد من افراد الشعب . فالسلام لا بدَّ منهُ لتوفير العيش الرخيّ وقدر معقول من الحرية في نطاق القانون ، يتيحان للمرء ان يتمتع بما وصفهُ روزفلت في احدى خطبه بالحريات الاربع وهي : —

الاولى حرية الكلام والتعبير — في كل بقعة من بقاع الارض

والثانية حرية كل امرىء في عبادة الله على طريقته الخاصة — في كل بقعة من بقاع الارض

والثالثة التحرُّر من ربقة العوز ، وهو اذا أفرغ في عبارات السياسة الدولية كان معناه عقد اتفاقات اقتصادية تضمن لابناء كل امة عيشةً راضية — في كل بقعة من بقاع الارض

والرابعة التحرُّر من الخوف ، وهو اذا أفرغ في عبارات السياسة الدولية كان معناه خفضُ التسلح خفضاً عالميًّا واسع النطاق حتى يستحيل على امة ما ان تعتدي على جارة لها — في كل بقعة من بقاع الارض

والدولة التي قاعدتها هذه الرغبة لا تستطيع ولا يجوز لها ، ان تخفض مستوى العيش وتنكر على الناس حرية الاجتماع والرأي والعقيدة وتجعلهم اضفاداً في حساب الانسانية ، لكي تكدّس السلاح بقصد استعباد الامم الاخرى

ويذهب فريق من الناس الى ان هتلر كان في طريقة اتفاقه المال رجلاً آخذاً باسباب الواقع ، وروزفلت رجلاً منعلقاً باهداب الوهم والخيال والنزعة الكمالية . فالذين يرون هذا الرأي ، هم دعاة الهزيمة الخلقية في نضال البشر . وتوهم هذا يصحُّ ان يؤخذ حجة عليهم بأنهم نزلوا عن كل مبدإ من مبادىء الفلسفة السياسية الاميركية التي من اجلها قامت حرب الاستقلال وعلى اساسها وضعت نصوص الدستور وفي سبيل صونها نشبت الحرب الاهلية وخاضت اميركا الحرب العالمية الاولى

لانهُ اذا كان الناس لا يؤمنون بأنهُ في وسعهم الآن وفي المستقبل ان يديروا شؤونهم تدبيراً قائماً على افهم وخدمة المصلحة العامة — مهما يكن ذلك على وجهه الاكمل بعيد المنال — فقد انهارت مبادىء الدستور وهي في صميمها ضمان «حق الحياة والحرية ونشدان السعادة»

وليس في منطق الاجتماع البشري ما يجعل هذا مستحيلاً. نعم قد تكون الغرائز الوحشية متغلبة على تركيبنا العقلي والادبي، وقد يكون الفناء ملازماً للجماعات الانسانية الكبيرة، وقد تعوزنا دائماً القدرة على الحكم الذاتي، ولكن قواعد الدستور الأميركي، وسائر الدساتير الديمقراطية الحديثة، تنكر هذا العجز، وكل من يتولى منصباً في دولة ديمقراطية يجب ان يكون مؤمناً بأن الحكم الذاتي ممكن، وان الحرية مثل عال بعيد ولكن الاقتراب منهُ مستطاع، وان رفع المستوى الثقافي للجماهير رفعاً مستمراً في المتناول، وان في قدرة الناس ان يدنوا، مهما تطل الطريق وتتوعر، من العدل في المجتمع

واذن فعلى رئيس دولةٍ تسلم بهذه المبادىء، كرئيس الجمهورية الأميركية، ان يبني سياسته عليها ويلبس ثوبها من خيوطها. واذا بنى سياسته على قواعد مناقضة لهذه القواعد، فقد أنكر التراث الانساني العالي، ولا ريب في انه يلقى من مقاومة شعبه، ما يرده او يسقطه. ولكن اذا واجهت الأمة الديمقراطية خطراً أصيلاً يهدّد كيانها من قبل دولة لا تسلّم الاّ بالقوة والبطش وتبني سياستها عليهما، فعليها حينئذٍ ان تعبىء كل قوتها للدفع عن كيانها

وليس ثمة ريب في ان روزفلت استشف في سنة ١٩٣٣ احتمال نشوب حرب، ولو وجّه كلّ نشاط اميركا الى التأهب للحرب لم يكن في وسع الشعب ان يرى احتمالها حينئذٍ لما كان اميركيّاً صميماً، وربما — وهو المرجح — عجز عن الفوز بموافقة ممثلي الشعب

***

وعلى كل حال فاليوم الذي اعتدى فيه هتلر على بولندا، كان حاسماً. فالمسألة التي واجهت الشعب الاميركي يومها، لم تكن طريقة روزفلت في إصلاح النظام الاقتصادي والاجتماعي، بل المحافظة على الكيان. ذلك بأن خطر الهمجية أصبح مكتوباً في عرض الفضاء الدولي بحروف كبار. وكان لا بدّ من ذلك اليوم أن يحشد روزفلت فكر الأمة الاميركية ونشاطها ومالها، لتعزيز أسباب الدفاع الوطني. فالتوزيعة الجديدة خطة تطبق او يحاول تطبيقها في أثناء السلام. وهي مثار خلاف عنيف بين الاحزاب والطبقات. والشغل الشاغل للاذهان الآن هو الحرب والدفاع القومي، وهو فوق الاحزاب والطبقات، وقد اعترف روزفلت حالاً بهذه الحقيقة عند ماعيّن — وهو زعيم الحزب الدمقراطي — قطبين من أقطاب الحزب الجمهوري لوزارتي الحربية (هنري ستمسون) والبحرية (فرنك نوكس) وكذلك رشح للمكتب المشرف على الانتاج الحربيّ رجالاً لم يكونوا من انصار التوزيعة الجديدة بل ولم يكونوا من الدمقراطيين

وقد كسب هتلر الشوط الأول في هذا النضال ضد خصمه، اي انهُ اضطر خصمه الى الأخذ ببعض الأساليب الحكومية التي ما فتىء هتلر يطبقها — ولكن بغير هوادة. وحمله على تغيير سيره واتباع المانيا، أي تحويل نشاط أميركا الفكري والاقتصادي والعاطفي من السعي وراء تحقيق أغراض السلام الى السعي وراء انشاء قوة عسكرية لا تضاهى

وقد يحمل انتشاؤم بعضهم على القول بأن روزفلت لم يخسر شوطاً واحداً لا غير، بل خسر معركة كبيرة. وعندهم ان انفاق اربعين الف مليون من الدولارات في السُبل التي انفقها فيها، اضعف الامة الاميركية، ولو انفقت في سبيل الحرب لكانت اميركا الآن اعزُّ يداً مما هي في هذا النضال العالمي الرهيب

ان هذا القول يتجاهل ثلاث حقائق. اولاً — ان الامم الدمقراطية بطبيعة مبادئها ونظرتها وطريقتها في الحياة لا تستطيع ان تتعرض الحرب وتتأهب لها قبل ان يتلبد جوُّ حياتها بغيوم أخطارها. وثانياً — ان كثرة الشعب الاميركي، وافقت مرتين، مرة سنة ١٩٣٦ ومرة سنة ١٩٤٠ على سياسة روزفلت واتجاهها. وثالثاً — اذا كان القضاءُ على قوة هتلر المسلحة التي تهدد الكيان الذي تمثله اميركا والاغراض التي تسعى الى تحقيقها، أمراً لازماً، فألزم منهُ القضاءُ على الافكار والمبادىء التي من وراء قوة هتلر المسلحة، اذا شئنا ان يتمتع العالم بالسلام عهداً ما. وروزفلت باسلوبهِ في « التوزيعة الجديدة » ضرب مثلاً لكثرة الاميركيين، بان النظام الدمقراطي يمكن تطبيقه تطبيقاً يقي الرجل المتوسط، — سواء اصح هذا القول ام لم يصح — وهذا الاعتقاد هو خير واق للشعب من خطر العدوى، بقول من يقول إن حياة الشعوب لا تستقيم الاّ على اساس « سلطان الزعيم » ومبدأ « عنصر الاسياد » و« حماية الدم » وغيرها من الآراء النجسة التي اغدقتها المانيا على العالم في السنوات الاخيرة

ان الملايين الكثيرة التي أيدت روزفلت في الانتخابات المتوالية، قد يخيب أملها في ما تعلقهُ بالدمقراطية الاميركية ومستقبلها الاجتماعي والاقتصادي من رجاء. ولكن سياسة الاصلاح التي درج عليها روزفلت في السنوات الست الأولى من رآسته انعشت رجاءها وعززت ايمانها بهذا النظام. فهي، والرجاءُ يحدوها، ينبض فيها كل عرقٍ للدفاع عنهُ. وعلى ذلك يصح ان نقول ان السنوات الست التي أنفق فيها روزفلت ألوف الملايين من الدولارات لبناء الجسور بدلاً من المدافع، والمدارس ومحطات توليد الطاقة بدلاً من الطائرات والبوارج — كانت سنوات تسليح — ولكنهُ تسليح أدبي. ولولا ذلك لكان من المحتمل ان نجد ملايين كثيرة لا تعتقد ان هنا نظاماً وحكومة، يستحقان سفك الدماء لحفظهما.

[تلخيص فصل للكاتب جيراد جنسن في مجلة الاتلنتيك منثلي]